صيام رمضان

وموازنته بصيام الثلاثين عند الصابئة والمانوية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

لا نعلم على وجه اليقين متى نشأت فكرة الصوم فى المجتمعات الإنسانية ، ولا نكاد نعرف شيئاً يعتدُّ به عن الأسباب الأولى التى دعت إليه ، كما أن ما وصلنا عن النظم الدينية للأمم الغابرة ، لا يرشدنا إلى أول شريعة جاءت به ، ولا يقفنا على أول شعب ظهر فيه . وكل ما يذهب إليه بعض الباحثين بصدد هذه الأمور يتألف من آراء قطيرة تعتمد فى بعض نواحيها على الحدس والتخمين ، وفى نواح أخرى على حجج ضعيفة قلقة ، لا يطمئن إلى مثلها المنطق السليم .

غير أنه مما لا شك فيه ، أن الصوم من أقدم العبادات الإنسانية ، ومن أكثرها انتشاراً . فلم يكد يخلو منه دين من الأديان ، ولم تتجرد عنه حياة شعب من الشعوب : جاء بملل الطوطميين والمجوس والوثنيين والصابئين والمانوية والبوذيين وعبدة الكواكب والحيوان ، كما جاء بشرائع اليهود والنصارى والمسلمين

وقد اختلفت أشكاله باختلاف الأمم والشرائع ، وتعددت أنواعه بتعدد الظروف المحيطة به والأسباب الداعية إليه . فمنه ما يكون بالكف عن الأكل والشرب والاتصال الجنسى والكلام ، ومنه ما لا يقتضى إلا الكف عن الأكل والشرب ، ومنه ما يتطلب الكف عنهما وعن الاتصال الجنسى ، أو عنهما وعن الكلام ... والإمساك عن الأكل والشرب يقع على وجوه كثيرة ، فمنه المطلق الذى شمل جميع المأكولات والمشروبات ، ومنه المقيد الذى يتم بالكف عن بعض أنواعهما ، وهو بجميع ضروبه يقتضي حرمان الجسم حرماناً اختيارياً من بعض حاجاته الطبيعية ...

ومن أنواع الصيام ما يقتضى الإمساك عن هذه الأمور اليوم كله نهاره وليله ، ومنه ما لا يقتضى الإمساك إلا نهاراً أو شطراً من النهار ، ومنه ما يبدأ بغروب الشمس ويستغرق الليل كله ، أو شطراً منه

ومن أنواع الصيام ما يكون متتابعاً يجرى فى أيام متتالية ، ومنه ما يكون مقصوراً على يوم واحد أو ليلة واحدة أو جزء من يوم أو ليلة ، ومنه ما شرع فى أيام غير متتابعة يفصلها بعضها عن بعض فترات معينة

ومن أنواع الصيام ما هو واجب يتحتم على جميع الطبقات أو بعضها بشروط خاصة ، ومنه ما هو مستحب يندب إليه جميع الأفراد أو بعض طوائف منهم . وجميع أنواع الصيام التى شرعها الدين الإسلامى تقتضى الإمساك عن الأكل والشراب والاتصال الجنسى من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ، وليس منها ما هو فرض على جميع المكلفين العاقلين إلا صيام رمضان

هذا ، ويشبه صوم رمضان فى ظاهره صياماً شرعته ديانة الصابئين والمانوية ، وسمى صيام الثلاثين ، فقد جاء بالجزء التاسع من كتاب الفهرست لابن النديم أن شريعة الحرانيين المعروفين بالصابئة أو الصابئين « تفترض عليهم من الصيام ثلاثين يوماً أولها لثمان مضين من اجتماع آذار » ، وأنهم كانوا يؤدون هذا الصوم تكريماً للقمر ، وأنه كان إمساكا مطلقاً عن جميع المأكولات والمشروبات من طلوع الشمس إلى غروبها . وقال فى نفس الجزء فى أثناء كلامه عن الثنوية الكلدانيين أو المانوية[1] إنه « إذا أهل الهلال ونزلت الشمس الدلو ومضى من الشهر ثمانية أيام يصومون حينئذ ثلاثين يوماً يفطرون كل يوم منها عند غروب الشمس » . وتدل عباراته أن صيامهم هذا كان تقديساً للأفلاك السماوية وبخاصة الشمس

وقد حاول كثير ممن فى قلوبهم مرض ، وممن وقفوا جهودهم على النيل من الإسلام والكيد له تحت ستار البحوث التاريخية ، والتحقيقات العلمية ، حاولوا أن يرجعوا صيام رمضان إلى صيام الثلاثين عند الصابئين والمانوية ، زاعمين أن محمداً عليه السلام قد اقتبسه من هاتين الشريعتين

ومن هؤلاء الدكتور ياكوب الألمانى . فقد قرر فى رسالة كتبها فى موضوع صيام رمضان ، بعد تحقيقات حسابية طويلة وموازنات بين التاريخ العربى والميلادى والبابلى ، أن أول سنة شرع فيها هذا الصوم وهى سنة ٦٢٣ ميلادية كان أول يوم من شهر رمضان فيها يوافق الثامن من شهر آذار ، أى أن أول رمضان صامه المسلمون كان موافقاً فى مبدئه ونهايته لتاريخ صيام الحرانيين ، وإن فى هذا أكبر دليل على أن محمداً قد اقتبس صومه عن شريعة الصابئين

(١) نسبة إلى زعيمهم الدينى مانى بن فتق . وديانتهم خليط من البابلية القديمة والمسيحية والفارسية ، وبها كثير من مظاهر تقديس الكواكب

وذهب العلامة الفنلنـــدى وســـترمارك Westermarcke إلى ما يقرب من هذا الرأى حيث يقول فى مؤلفه : The Origin and Development of Moral Ideas « إن وجوه الشبه بين صيام رمضان وصيام الثلاثين عند الحرانيين والمانوية لتحمل على الجزم برجوعهما إلى أصل واحد . فلا بد إذن أن يكون محمد قد نقل صيامه عن الحرانيين أو عن المانوية أو عنهما معاً »

وهذه لعمرى شنشنة عرفناها عن معظم من تصدى من الفرنجة لبحث عقائد الدين الإسلامى وشعائره ، فتراهم قبل أن يفهموا الموضوع الإسلامى الذى يتصدون لدراسته حق الفهم ، وجهون كل همهم إلى البحث عن نظير له فى الشرائع الأخرى ، ولا يلبثون أن يعثروا عليه حتى يوحى إليهم تعصبهم أن هذا منقول عن ذاك ، ثم لا تعوزهم الحيل والمنافذ لإلباس أهوائهم ثوب الحقائق

ومع أن المقام لا يتسع لرد مفصل على ما زعموه بصدد صيام رمضان ، فإن فى النقط المجملة الآتية ما يكفل نقض مزاعمهم هذه من أساسها :

(أولاً) : لم يحدث فى الجاهلية أى اتصال فكرى أو دينى بين قريش التى نشأ فيها الرسول وبين الصابئين أو المانوية ، وقد حال دون هذا الاتصال أمور كثيرة ، منها اختلاف اللغة والخط والثقافة والحضارة ، ومنها بعد المسافة بين مواطن هؤلاء وأولئك ، فقد كانت بلاد الصابئين والمانوية فى حدود فارس من الغرب على حين أن القرشيين كانوا يقطنون الحجاز والمواطن المتاخمة له ، وكانت أسفارهم التجارية لا تتجاوز طريق الشام واليمن ، يسلكون أحدهما فى رحلة الشتاء والآخر فى رحلة الصيف ، ولم ينقل عن الرسول عليه السلام أنه اتصل قبل بعثته بأحد من الصابئين أو المانوية أو عنى بدراسة شرائعهم أو وقف على شىء منها ، وظل هذا حاله إلى ما بعد رسالته بأمد غير قصير

(ثانياً) إن صوم رمضان يختلف اختلافاً جوهرياً فى شروطه وقواعده ومقاصده ووقته وطريقة أدائه وحكمة تشريعه عن صوم الثلاثين عند الصابئين والمانوية ، فليس بينهما من وجوه الشبه إلا الاتفاق فى عدد الأيام وتتابعها ؛ وهـذه ناحية شكلية من التعسف اتخاذها دليلاً على أن أحدهما منقول عن الآخر . على أنهما يختلفان فى هذه الناحية نفسها اختلافاً غير يسير . فالصيام الإسلامى مدته شهر عربى (وهـذا الشهر يختلف باختلاف السنين ، فتارة يكون ثلاثين يوماً وتارة تسعة وعشرين) ؛ على حين أن صيام الصابئين والمانوية مدته ثلاثون يوماً . والصيام الإسلامى يبتدئ بابتداء الشهر وينتهى بانتهائه ، أما صيامهم فيبتدئ من اليوم الثامن من الشهر وينتهى فى الشهر التالى له

(ثالثاً) إن اختيار رمضان بالذات ليس سببه اتفاق مبدئه فى أول عام شرع فيه الصوم مع مبدأ صيام الصابئين ، كما ذهب إلى ذلك الدكتور جاكوب ، وإنما سببه — كما صرح بذلك الكتاب العزيز ، وكما يدل البحث التاريخى المجرد عن الهوى — أنه الشهر الذى أنزل فيه القرآن . فلا غرو أن اختصه الله بهذه المزية من بين سائر الشهور

(رابعاً) هذا إلى أن القرآن الكريم ينص على أن ما سن لنا من الشرائع قد سن مثله لكثير من الأمم قبلنا . قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى ... الآية » . وقال عزّ وجل : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ... » فمن الممكن إذن أن يكون صيام الثلاثين عند الصابئين والمانوية مستمداً فى الأصل من شريعة سماوية تقادم عليها العهد فدخلها التحريف والتبديل وبعدت عن غايتها الأولى وصبغت بصبغة التقديس للكواكب ، وأن الدين الإسلامى قد كتب نفس الصوم الذى كتبته هذه الشريعة ، فأحياها طاهرة نقية وقضى على كل ما علق بها من أدران الشرك

وقد ذهب بعض المؤرخين من المسلمين وغيرهم إلى أن صيام رمضان كان منتشراً عند بعض قبائل العرب فى الجاهلية ولا سيما قريش ؛ ويؤيدون رأيهم هذا بأن النبى عليه الصلاة والسلام نفسه كان قبل بعثته يقضى فى غار (حراء) شهر رمضان من كل عام متحنثاً صائماً . وقد اختلفوا فى أصل هذا التشريع . فمنهم من يرى أنه من الشرائع التى جاء بها إبراهيم عليه السلام ، ويستدل على ذلك بأن الدين ثبت أداؤهم لهذه الشعيرة فى الجاهلية كانوا من المعروفين باتباعهم ملة إبراهيم ؛ ومنهم من يرى أن عبد المطلب جد النبى عليه الصلاة والسلام هو أول من سنه وسار عليه (وقد أخذ بهذا الرأى الأستاذ موير فى كتابه « حياة محمد »)

ولكن لم يثبت بعد شىء من هذا كله بالدليل القاطع . ومهما يكن ، فإنه لا يضير الدين الإسلامى فى شىء أن يكون صيام رمضان متبعاً عند العرب قبل بعثة الرسول . فمن المحقق أن الشريعة المحمدية أقرت كثيراً من عادات العرب وشعائرهم ، وأن ركناً كبيراً من أركانها وهو الحج لم تدخل على أوقاته ومناسكه فى الجاهلية تغييراً كبيراً .

على عبد الواحد وافى